

الهجرة النبوية فوائد ودروس وعبر

المدينة موطن الوافدين والمهاجرين من المسلمين على تنوع بيئاتهم

الأعراب، ففساها وأعطاها، قال: ولا أعلمه إلا قال: وأسلمت، وذكر صاحب (الوفاء) أنها هاجرت هي وزوجها وأسلم أخوها خنيس واستشهد يوم الفتح.

مواقف خالدة لأبي أيوب

قال أبوأيوب الأنصاري: «ولما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيئتي نزل في السفلى وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: يا نبي الله، بابي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاطهر أنت فكن في العلو، ونزل نحن فنكون في السفلى، فقال: «يا أبا أيوب: إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفلى البيت» قال: فلقد انكسر حُب لنا فيه ماء، فقمنا أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء يؤذيه».

هجرة علي

بعد أن أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمانات التي كانت عنده للناس، لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وأدركه بقاء بعد وصوله بليلتين أو ثلاث، فكانت إقامته بقاء ليلتين، ثم خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يوم الجمعة وقد لاحظ سيدنا علي مدة إقامته بقاء امرأة مسلمة لا زوج لها، ورأى إنساناً ياتئها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليها فيعطئها شيئاً معه، فتأخذها، قال: فاستربت بشانه، فقلت: يا أمة الله، من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه، فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو؟ وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف بن وهب، وقد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا علي أو ثأن قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا، فكان علي يآثر ذلك من شأن سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق.

الهجرة من سنن الرسل

إن الهجرة في سبيل الله سنة قديمة، ولم تكن هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بدعا في حياة الرسل لنصرة عقائدهم، فلئن كان قد هاجر من وطنه ومسقط رأسه من أجل الدعوة لحفاظا عليها وإيجاد بيئة خصبة لتقبلها وتستجيب لها، وتذود عنها، فقد هاجر عدد من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم لنفس الأسباب التي دعت نبينا للهجرة. وذلك أن بقاء الدعوة في أرض قاحلة لا يخدمها بل يعوق مسارها ويشل حركتها، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر، وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من هجرات الرسل واتباعهم من الأمم الماضية لتبدو لنا في وضوح سنة من سنن الله في شأن الدعوات، يأخذ بها كل مؤمن من بعدهم إذا حبل بينه وبين إيمانه وعزته، واستخف بكيانه ووجوده واعتدى على مروءته وكرامته.



وقد استجاب الله دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم وعوفي المسلمون بعدها من هذه الحمى، وغدت المدينة موطناً ممتازاً لكل الوافدين والمهاجرين إليها من المسلمين على تنوع بيئاتهم ومواطنهم.

مكافأة النبي لأم معبد

وقد روي أنها كثرت غنمها، ونمت حتى جلبت منها جلباً إلى المدينة، فمر أبو بكر، قرأه ابنها عفره، فقال: يا أمة هذا الرجل الذي كان مع المبارك، فقامت إليه فقالت: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال: أو ما تدريين من هو؟ قالت: لا، قال: هو نبي الله، فأدخلها عليه، فاطعمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاها. وفي رواية، فأنطلقت معي وأهدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من أقط ومتاع

إن الجبان حثفهُ من فوقه لقد وجدت الموت قبل ذوقه كالثور يحمي جلده بروقه كل أميرٍ مجاهد بطوقه قالت: فقلت: والله ما يدري عامر ما يقول، قلت: وكان بلال إذا أقبل عنه الحمى اضطجع بفناء البيت، ثم يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيّت ليلة بؤاد وحولي إنخرر وجليل وهل أُرِدَنَ يوماً مياه مجنة وهل يَبْدُونُ لي شامة وطفيل قالت: فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: «اللهم حبيب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وأنقل حماها إلى الجحفة، اللهم بارك لنا في مدنها وصاعها».

الآيات نزلت في المنافقين المتخلفين عن الرسول في الخندق

تنظيم العلاقات بين المسلمين والأداب في مجلس الرسول

عن عليه وسلم- ولا إذنه، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابهته النائية من الحاجة التي لايد منها يذكر ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويستأذنه في اللحق بحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله، رغبة في الخير واحتسابا له. فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين: إنما المؤمنون.. الآية ثم قال تعالى: أولئك الذين الذين كانوا يتسللون من العمل، ويذهبون بغير إذن من النبي -صلى الله عليه وسلم-: لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم.. الآية. وأما ما كان سبب نزول هذه الآيات فهي تتضمن الآداب النفسية التنظيمية بين الجماعة وقائدها. هذه الآداب التي لا يستقيم أمر الجماعة إلا حين ينعم من مشاعرها وعواطفها وأعماق ضميرها ثم تستقر في حياتها فتصبح تقليدا متبعاً وقانوناً نافذاً وإلا فهي الفوضى التي لا حدود لها: إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، لا الذين يقولون بافواههم ثم لا يحققون مدلول قولهم، ولا يطيعون الله ورسوله. وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، والأمم الجامع الأمر الهام الذي يقتضي اشتراك الجماعة فيه، لرأي العامة فيذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم كي لا يصيح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام.

وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان، ويلتزمون هذا الأدب، لا يستأذنون إلا وهم مضطرون فلهم من إيمانهم ومن أدبهم عاصم ألا يتخلوا عن الأمر الجامع الذي يشغل بال الجماعة، ويستدعي تجمعها له.. ومع هذا فالقرآن يدع الرأي في الإذن أو عدمه للرسول -صلى الله عليه وسلم- رئيس الجماعة بعد أن يبيح له حرية الإذن: «فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم».. [وكان قد عاتبه على الإذن للمنافقين من قبل فقال: «عفا الله عنك! لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين، يدع له الرأي فإن شاء أذن، وإن شاء لم يآذن، فيرفع الحرج عن عدم الإذن، وقد تكون هناك ضرورة ملحة ويستتقي حرية التقدير لقائد الجماعة ليوازن بين المصلحة في البقاء والتقصير أو قصور يقتضي استغفار النبي -صلى الله عليه وسلم- للمعتدين: «واستغفر لهم إن الله غفور رحيم». وبذلك يستأذن وله مندوحة لقهر العذر الذي يدفع به إلى الاستئذان. وليلتفت إلى ضرورة

توقير الرسول -صلى الله عليه وسلم- عند الاستئذان، وفي كل الأحوال فلا يدعي باسمه: يا محمد أو كنيته: يا أبا القاسم. كما يدعو المسلمون بعضهم بعضاً إنما يدعى بتشريف الله له وتكريمه: يا نبي الله يا رسول الله: «لا تجعلوا دعا رسول الله بينكم كدعاء بعضكم بعضاً». فلا بد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى تستشعر توقير كل كلمة منه وكل توجيه. وهي لفظة ضرورية. فلا بد للمربي من وقار، ولابد للقائد من هيبة. وفرق بين أن يكون هو متواضعا هيناً ليناً، وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض.. يجب أن تبقى للمربي منزلة في نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم في قرارة شعورهم، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التجبيل والتوقير. ثم يحذر المنافقين الذين يتسللون ويذهبون بدون إذن، يلود بعضهم ببعض، ويتدارى بعضهم ببعض.. فعين الله عليهم، وإن كانت عين الرسول لا تراهم: «قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا». وهو تعبير يصور حركة التخلي والتسلل بحذر من المجلس، ويتمثل فيها الجبن عن المواجهة، وحقارة الحركة والشعور المصاحب لها في الفلحيزر. فأصبح الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم

عذاب اليم». وأنه لتحذير مرهوب، وتهديد رعب.. فليحذر الذين يخالفون عن أمره، ويتبعون نهجا غير نهجه، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس، وتختل فيها الموازين. وينتكت فيها النظم، فيختلط الحق بالباطل، والطيب بالخبث، وتفسد أمور الجماعة وحياتها فلا يأمن على نفسه أحد، ولا يقف عند حده أحد، ولا يميز فيها خير من شر.. وهي فترة شقاء للجميع: «ألا إن لله ما في السموات والارض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فنيبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم (64)». «أو يصيبهم عذاب اليم» في الدنيا أو في الآخرة. جزاء المخالفة عن أمر الله، ونهجه الذي ارتضاه للحياة. ويختم هذا التحذير، ويختم معه السورة كلها بإشعار القلوب المؤمنة والمنحرفة بأن الله مطلع عليها، رقيب على عملها، عالم بما تنطوي عليه وتخفيه. وهكذا تختم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله، وتذكيرها بخشيته وتقواه. فهذا هو الضمان الأخير. وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهي، التي فرضها في الآداب، وهذا الخلق في هذه السورة وجعلها كلها سواء.

الصبر ضياء، إذا استحكمت الأزمان وتعقدت حبالها وترادفت الضوائق وطال ليلها فالصبر وحده هو الذي يشع للمسلم النور العاصم من التلاطم والهداية الواقية من القنوط. والصبر فضيلة يحتاج إليها المسلم في دينه ودنياه ولابد أن يبني عليها أعماله وأماله وإلا كان هازلاً.. يجب أن يوطن نفسه على احتمال المكروه دون ضجر وانتظار النتائج مهما بعدت ومواجهة الأعباء مهما ثقلت بقلب لم تعلق به ريبة وعقل لا تطيش به كربة يجب أن يظل موفور الثقة بادي الثبات لا يرتاع لغيمة تظهر في الأفق ولو تبعثها أخرى وأخرى بل يبقى موقناً بأن بؤادر الصفو لا بد آتية وأن من الحكمة ارتقاها في سكون و يقين. وقد أكد الله أن ابتلاء الناس لا محيص عنه حتى يأخذوا أهيتهم للنوازل المتوقعة فلا تذلههم المفاجآت ويضربوا لها. ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم». وذلك على حد قول الشاعر: عرفنا الليالي قبل ما نزلت بنا فلما دهتنا لم تزدنا بها علماً! ولا شك في أن لقاء الأحداث ببصيرة مستنيرة واستعداد كامل أجدي على الإنسان وأدنى إلى إحكام شؤونه. قال تعالى: «وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور».

والصبر يعتمد على حقيقتين خطيرتين: أما الأولى فتتعلق بطبيعة الحياة الدنيا فإن الله لم يجعلها دار جزاء وقرار بل جعلها دار تجميع وامتحان والفترة التي يقضيها المرء بها فترة تجارب متصلة الحلقات يخرج من امتحان ليدخل في امتحان آخر قد يغير الأول مغايرة تامة أي أن الإنسان قد يمتحن بالشيء وضده مثلاً يصهر الحديد في النار ثم يرمي في الماء وهكذا». وكان سليمان عالماً بطبيعة الدنيا عندما رزق التمكين الهائل فيها فقال: «هذا من فضل ربي ليبلوني أن أشكر

ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر

أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم». والابتلاء بالأحزان مبهم الأسباب! ويحسن أن نفهم أن أوضاع الناس في الحياة كجيش عبى للمصلحة الكبرى وتكلف بعض قرقه بالقتال حتى الموت لإنقاذ فرق أخرى وإنقاذ الفرق الباقية يكون للقفز بها في معارك جديدة ترسمها القيادة حسبما تتهيأ في المصلحة الكبرى فتقدير فرد ما في هذه الغمار المائجة لا ينظر إليه لأن الأمر أوسع مدى من أن يرتبط بكيان فرد معين. كذلك قد يكتب القدر على البعض صنوفاً من الابتلاء ربما انتهت بمصارعهم. وليس أمام الفرد إلا أن يستقبل البلاء الوائد بالصبر والتسليم ومادامت الحياة امتحاناً فلنكرس جهودنا للنجاح فيه وامتحان الحياة ليس كلاماً يتيب أو أقوالاً توجه إنه الآلام التي قد تقتحم النفس وتفتح إليها طريقاً من الرعب والحرج إنها النقائض التي تجعل الدنيا تتخضم بطون الكلاب وتقيم صديقين على الطوى إلهي المظالم التي تجعل قوما يدعون الألوهية وآخرين يستشهدون وهم يدافعون عن حقوقهم الملهوية.

إن تاريخ الحياة من بدء الخلق إلى اليوم مؤسف! ومن الحق أن يشق المرء طريقه في الحياة وهو موقن بأنه غاص بالأشواك والأقذاء وأما الحقيقة الأخرى فتتعلق بطبيعة الإيمان: فالإيمان صلة بين الإنسان وبين الله عز وجل وإذا كانت صلات الصداقة بين الناس لا يُعد بها ولا ينوه بشأنها إلا إذا أكدها مر الأيام وتقلب الليالي واختلاف الحوادث فكذلك الإيمان لابد أن تخضع صلته للابتلاء الذي يمحصها فإما كشف عن طبيعتها وأما كشف عن زيفها. قال الله تعالى: «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين».